المشرق

السواحل اللبنانية

للاب هنري لامنس اليسوعي مدرس الجغرافية الشرقية في المكتب الشرقي

ألمعنا في خلال درسنا لرسم الجبال اللبنانيَّة الى السواحل الفينيقيَّة فقلنا انَّ من خواصها وحدةَ سياقها وجريها على خطّ موازٍ لجبل لبنان اللهمَّ الَّا رؤوس قليلة كرأس بيروت ورأس الشقمة التي تشذّ نوعاً عن هذه الخطَّة العموميَّة. وهذا فصلٌ نفرده لدرس هذه السواحل مباشرةً بالشمال

*

فان اطلقنا رائد الطرف الى هذا القسم الشمالي وهو الواقع بين مصبّ النهر الكبير ورأس الشقمة وجدناهُ بالمقابلة انَّهُ يخالف بقيَّة الساحل في خطّهِ المتساوي. وما ذلك الَّا لسبب اختلافٍ يطرأ على وجهة الجبل كما سبقت اليهِ الاشارة في بحثنا عن رسم لبنان فترى الساحل يستدير على صورة هلال من حدّ مصبّ النهر الكبير الى الصخور المتواصلة التي تطفو فوق سطح البحر عند مينا طرابلس وهو الجون المعروف بجون عكَّار. ولا غرو انَّ هذا الجون كان اضحى خليجاً كبيراً بعيد الغور بين جبل النصيريَّة ولبنان لولا انَّ مياه النهر الكبير مع نهر عكَّار والنهر البارد حالت دون ذلك بما جرفتهُ من التربة التي ملأت تلك البطحاء. فلمَّا لم تجد هذه العوامل القويَّة كفوءاً يتصدَّى لها كبعض المجاري البحريَّة او مدّ البحر وجزرهِ فعلت فعلها وكوَّمت جُرفها في تلك الوهاد التي كانت

جديرة بان تكون خليجاً ذا شأن اثير وفوائد اقتصادية جمّة . اذ انّ البحر كان يستطيع ان يمتدّ الى داخل سورية ويصير لها بمثابة قناة بحرية او كخليج قورنتس يُقرّب البلاد الداخلية لا سيّما وادي العاصي الخصب الى المعاملات التجارية . وما أدرانا انّ هذا الخليج لو وُجد لم يؤثر في تجارة بلاد آسية الغربيّة (١ فيحوّل الى طرابلس كل الحركة التجارية وينتزع عن صيدا وصور سيطرتهما البحرية

وجنوبيّ هذا الجون بين مينا طرابلس وسفح الجبل سهولٌ خصبة تكوّنت بما جرفهُ اليها من التربة نهر قاديشا على طول ممرّ الاجيال جاريًا بذلك مجرى الانهار الثلاثة السابق ذكرها . وبفعله اتّصلت بالبرّ الصخور التي بُني فوقها ميناء طرابلس وتحوّلت البقعة الى شبه جزيرة على شكل مربّع غير متساوي الزوايا . والرمال قد سطت على الجانب الغربيّ من هذا المربّع كفعلها في غربيّ بيروت والسبب واحد غير انّ رمال بيروت اوسع منها مجالًا واوفر كميّةً

وان سرتَ جنوبيّ هذه شبه الجزيرة رأيت الساحل يقترب من الجبل مستديرًا على شكل جون آخر يحدُّهُ جنوبًا رأس الناطور . والدائرة الساحليّة كلّها جبال متواصلة لا يفصلها عن البحر سوى قطعة ضيّقة من الرمال التي قذفتها الامواج . ثم يأتي ما وراء رأس الناطور خور صغير يليهِ رأس أنفة وهو دون رأس الناطور كبرًا لكنّهُ اغرب منهُ صورةً . وهو عبارة عن قطعة ارض مستطيلة طولها ٤٠٠ متر في عرض عشرة امتار فقط يفصلها عن البرّ خندق حفرهُ في الصخر الاصمّ على ما يظهر قدماء الفينيقيين . وذلك انّ الفينيقيين كما لا يخفى كانوا من ارباب البحر فوجدوا في هذا الرأس ما يرغبون فيهِ لتقلّباتهم البحرية اعني موقأين تلتجئ اليهما جنوبًا وشمالًا سفنهم فتأمن من الانواء مع قربها من الجون الشمالي ومن الخليج الجنوبي الذي بدؤهُ عند رأس أنفة منتهيًا الى رأس الشقمة

وفي وسط هذا الخليج الجنوبي المستدير على شكل نصف دائرة غير منتظمة سهول تكوّنت من جرف الانهار لا يقلّ عرضها عن كيلومترين الّا انّ المياه المنحدرة من الاودية المجاورة قد استنقعت في قسم منها لما تجدهُ في مصبّها من الرمال المتراكمة

(١ راجع كتاب دينر (Diener) ص ٨٨

الحاجزة بينها وبين البحر . على انَّ ترقّي الفلاحة في تلك الانحاء قد زاحم منذ امد قريب تلك المستنقعات فحصرها واماتها بيبدها ويلاشيها لانَّ الزراعة تجد في تلك التربة المتركّبة من الرواسب الصلصاليَّة والكلسيَّة ما يصلح لنموّها ووفرة مآتيها . وعلى ظننا انَّ ناحية شكّا سوف تُضحي من اخصب جهات لبنان اذا ما فتحت لها طريق مساوكة تصلها بناحية البترون والقائمقاميّات الجنوبيَّة ريثما تبلغها السكك الحديديَّة

ويمتدُّ هذا السهل في جنوبهِ ذاك الرأس المستطيل المرتفع على شبه جدار هائل زيد رأس الشقعة الذي يشرف على البحر بعلوّ ٢٠٠ متر ونيف . ومن نظر الى هذا الجبل الشاهق من جهتهِ الشماليَّة اخذه الاندهال من غرابة صورتهِ فيحسبهُ كدارعة عظيمة راسية في المرفإ مجهَّزة في مقدّمها بمهماز ضخم كانها على وشك الخروج لتسخر عباب البحر . وعند جنوبي غربي هذه الدارعة الغربية من جهة نهر الجوز سهل حنوش يفصلها عن البحر معدّل لا يتجاوز عرضهِ نصف كيلومتر وتربة هذا السهل جيدة لولا انَّ قلَّة الماء لا تسمح بتوفير مزروعاتها كسهل شكّا . اما من جهة الجنوب فانَّ رأس الشقعة يشرف على وادي نهر الجوز ولا يفصلهُ عن هضاب لبنان الشرقيَّة الّا اخاديد عميقة خُدَّت في تربة متركّبة من الحوّارى وقطع الصوّان شأن الجبال التي تتوسَّط بين ناحية الكورة والبحر . وبين تلك الاخاديد مسلك يُعدّ من اصعب مسالك لبنان واشدّها خطرًا لانهُ كثير التراب تغوص الرجل في ارضهِ الوعثة صيفًا وتزلج في طينهِ اللزج شتاء

فترى ممَّا تقدَّم انَّ رأس الشقعة كمكعَّب مرتفع معتدل من كل جهاتهِ قريب من الشكل المربَّع المستطيل طولهُ مسير ساعة وعرضهُ نصف ساعة ومعدَّل علوهِ ٢٥٠ مترًا تُرى في قمَّتهِ قرية حامات البالغة ٣٠٠م . ومساحتهُ في اعلاه مستوية ذات آكام قليلة الارتفاع وهو ينحني انحناء خفيفًا من الشرق الى الغرب مع بعض الاودية غير العميقة من تلك الجهة يُعرف اكبرها بوادي العرب . ومياه الشتاء تجري في فصل الامطار منحدرة من تلك الاودية الى البحر . وليس ثمَّة ينابيع ماء لانَّ التربة قليلة الخصب كثيرة الحجارة اللهمَّ الّا بعض البطائح قريبًا من دير النوريَّة حيث الثرى قد خصب بما تساقط فيهِ من اوراق الشجر وبقايا النبات

وليس رأس الشقعة متفرّدًا بما خُصَّ بهِ من الهيئة الغريبة فقط بل بهِ تنوط مسألة

اخرى تاريخيَّة يقتضي حلّ مشكلها تحديد تعيين الطريق الرومانيَّة التي كانت تمرُّ هناك وتتَّصل بطرابلس . وهي طريق لا شكَّ في وجودها وقد وجدنا منها آثارًا باقية فوق حنُّوش على راس الشقمة . فترى من اي جهة كانت هذه الطريق تنحدر الى سهل شكَّا ومما لا ينكر انَّ منعطف هذا الرأس من جهتيه الشماليَّة والجنوبيَّة لا يحتمل طرقًا سلوكة لوعورتهما . اما عقبة المسيلحة فانها كما سبق غير مطروقة شتاء وصعبة المسلك في بقيَّة فصول السنة . فهل يا ترى قد درست آثار الطريق القديمة بطوارئ الحدثان لا سيَّما بفعل الزلزلة التي حدثت على عهد يوستنيانوس . فذلك رأي نرتئيه ولا نعلم ما فيه من الصحَّة . وانما عرضناهُ لنظر العلماء دون بتّ الحكم فيه

لمَّا اسم راس الشقمة عند الاقدمين فهو كما ألمنا اليه سابقًا « ثيوپروسوپون » ومعناه باليونانيَّة وجه الله . ودُعي ايضًا « ليثوپروسوپون » اي « وجه الحجر » وفي هذين الاسمين على الرجّح اشارة الى اسم الاله الفينيقيّ القديم . وفي جنوبيه الغربيّ قرية صغيرة تدعى حتَّى الآن وجه الحجر وناهيك به اشارة الى اسمها السابق . والحجارة كما لا يخفى كانت من معبودات الاقدمين . ولنا في صور مثال على ذلك لانَّ معنى الصور الصخرة كما هو معلوم وصور ايضًا من آلهة السوريين (١ وما هو اصرح من ذلك انَّ عرب الجاهليَّة كانوا يعبدون الهًا باسم الحجر . فيكون مدلول ثيوپروسوپون وليثوپروسوپون ووجه الحجر واحد اعني الاله الحجري . وقد كنَّا في ما مرَّ ارتأينا انَّ هذا الرأس هو ما دعاه الاشوريون « بعل الرأس » امَّا فنكلر فقد زعم انَّ بعل الرأس هو مضيق نهر الكلب ولا نعلم على اي سند يؤيد زعمهُ . وابعد من ذلك زعم حضرة الاب لاكرنج في كتابه عن الديانات الساميَّة انَّ بعل الرأس هو رأس الدامور . وهو يسمَّى اليوم رأس الشقمة . وكان بحَّارة الفرنج يعرفونهُ باسم « رأس وجه » فصحَّفوه ودعوه كاپوج (Capouge) وكاپوني (Capponie) وكاپ بُنج (Cap ponge) وكاپ روج (Cap rouge) كما اشرنا الى ذلك سابقًا (راجع تمريح الابصار ج ٢ ص ١ و ١٠) وزعم رينان انهُ دُعي باسم كاپ مادون (Cap-Madonne). فيكون في هذا الاسم اشارة الى دير سيدة النوريَّة . وكان الملَّاحون يهابون هذا

(١ راجع كتاب فنكلر في الكتابات الاشوريَّة ص ٢٥٨ و ٤٧٧

الجبل ويتخوّفون الرياح التي تهبّ في جواره ولذلك ترى في دير النورية نذوراً للملّاحين نذروا بها عند الانواء وقاموا بوفائها . وقد اختبرنا نحن ايضاً غير مرّة في اسفارنا قوّة الرياح في هذه الجهات بحيث كانت مراكبنا البخارية نفسها تشعر بفعلها اذا ما اقتربت منها وتحركت بحركة غير مألوفة

*

ووجهة الساحل من مصبّ نهر الجوز وناحية البترون تعود الى خطّ الجنوب الغربي تابعةً في سيرها وجهة قطب الجبل الاصلي بكل دقّة كما يتحصّل من مجرّد النظر الى خارطة جبل لبنان . امّا تركيب الساحل فيتراوح بين الصخور والقطع الرمليّة المختلفة السعة

واذا بلغ الساحل ناحية جبيل استدار على صورة خليج واسع قريب القعر مركزه عند نهر ابراهيم ونهاية استدارته عند رأس المعاملتين (١ وهذه استدارة الساحل توازي استدارة قطب الجبل الاصلي وتتميّزه عند جبل المنيطرة وذلك يقتضي قاعدة راهنة اثبتناها سابقاً في رسم جبل لبنان . وكذلك خور جونية فانّ استدارته توازي ما حصل لقطب الجبل من الانواء بين المنيطرة وصنّين شرقاً . وصنين يبرز هناك على صورة مثلّث له على الساحل زاويتان وهما رأس صربا ورأس نهر الكلب . وهو يؤثر في وجهة الساحل الذي يعدل عن الجنوب مائلاً الى الجنوب الغربيّ

ورأس نهر الكلب احرى به ان يُعدّ كدعامة للبنان وهو يحدّد النهر جنوباً ويدخل في البحر . وان اعتبرتهُ في جهته الغربيّة من جهة البحر وفي جهته الشماليّة من صوب النهر وجدتهُ منتصباً كجدار تُطع عمودياً والامواج تلاطم اسفلهُ . وصخوره تلامس البحر وهي كثيرة التخاريب متقطعة منخورة مقعرة وذلك بلا شكّ من عمل البحر فيها في الازمنة الغابرة اذ كانت مياه البحر المتوسط تغمرها لعلوّ سطحهِ فوقها . ولمّا هبطت المياه وصارت الصخور بارزةً عملت فيها العوامل الجوّية مواصلة لعمل المياه . ثمّ كان لا بُدَّ من نحت هذه الصخور لتسير فيها طرق الساحل فنقرت طرق متعدّدة . منها طريق العجلات التي تجري قريباً من البحر وهي تدور حول رأس النهر وفويقها السكّة اللبنانيّة

١) وهناك ما دعاه الشريف الادريسي بطفة السلام والصواب عطفة سلّان

الحديدية تجري على خطّ موازٍ لطريق العجلات . واذا رقيتَ الى نحو ٣٠ متراً فوق سطح البحر وجدت الطريق الرومانيّة منقورةً في الصخر على عهد سرقس اوريليوس تشهد عليها كتابة جميلة تُرى حتّى يومنا عند الجسر الحديث

وهذه الطريق يوصل اليها بدرج منحوت في الصخر وهي تستدير مع عطفات الجبل . وفي ذروة هذه الصخور اقدمُ الطرقات الساحليّة وهي التي سلكها الاشوريّون والمصريّون بجنودهم تدلّ عليها أنصاب عديدة فيها كتابات مسماريّة وهيروغليفيّة . وقد مرَّ ذكرها

ثمَّ تجد في لبنان وادياً منسمّاً بين جبلي صنين والكنيسة يوازيه خليج مار جرجس او خور الخضر . ويُبعد هذا الوادي حدبةٌ مستديرة شرقاً يجاريها اكبر الرؤوس الفينيقيّة وارحبها اعني رأس بيروت . وقياس جهة هذا الرأس الشمالية مباشرةً بالصخور القائم فوقها المسلخ الى الربوة التي تعلوها المنارة لا يقلّ عن ستة كيلومترات . وثلثا هذه المسافة تشغلها البنايات البيروتيّة . فيكون مقام هذا الرأس ممّا يجدي خصوصاً بيروتنا حسناً ويجمل وضعها من ابدع مواقع المدن الساحليّة . وطبقات هذا الرأس السفلى تتركّب من صنف من الطباشير كثير التفتّت يجمع اقسامها ملاط من الظرّان . وامواج البحر قد نفذت الى هذه الصخور وانتكلت اواسطها وتركت سقوفها بلا دعائم تسندها . ولذلك ربّما تداعت هذه الصخور وهبطت وانخسفت بفعل هذه العوامل الخسافاً لا يكاد يصدّق بهِ من لم يعاينهُ . وممّا يشهد على ذلك صخور تُرى في وسط البحر وليست هي الّا بقايا جزائر فصلتها هذه العوامل الشديدة عن الساحل . ولنا شاهد حسيّ على قولنا في جزيرة الحمام جنوبي رأس بيروت . وهناك ايضاً كهفان شهيران تكوّنا على هذا النمط عينهِ . ولا شكَّ انَّ سقفها يسقط عمّا قليل كما جرى للكهوف المجاورة التي تُرى اليوم على شكل نصف دوائر او على صورة جسور طبيعيّة الى غير ذلك من الهيئات الغريبة التي سبق لنا الكلام فيها

وفي جنوبيّ غربيّ هذا الرأس تمتدُّ رمال بيروت التي يبلغ معظم طولها سبعة كيلومترات في عرض كيلومتر ونصف . وقد بيّنا في ما مرَّ تركيبها واصلها البحريّ وهي تزحف على بيروت من الجهة التي تنتهي عندها الصخور ولعلّها تغمر بغاراتها حدائق المدينة لولا انَّ غابة الصنوبر تردّ قسماً منها

وجنوبي شبه جزيرة بيروت يعود الخطّ الساحلي الى استقامته الّتي لا يخالفها سوى بعض رکام الصخور تنتصب من مسافة الى اخرى اخصّها رأس الدامور عند نهر الدامور ثم رأس جدرة في وسط الطريق بين نهري الدامور والاولي ثمّ رأس الرميلة بقربة من الاولي ولهذه الرؤوس الثلثة ثلثة جُوَن تجاورها وفي اثرها اخيرًا رأس صرفند بين صيداء والليطاني على نحو نصف الطريق بينهما وبعد هذا الرأس لا يخالف الساحلُ الخطَّ المستوي الى نهر القاسميّة

*

قد لحظ قرّاؤنا في ما سبق لنا من وصف الساحل الفينيقيّ أنّنا لم نأتِ بذكر الجزُر وعدم وجودها ممّا يزيد في وحدة اتّساق هذا الساحل. على أنّهُ في مرفإ طرابلس من جهتها الجنوبيّة الغربيّة عدّة جزُر تُدعى اكبرها النخلة وهي تبلغ نحو مئتي متر بتيف وقد فكّرت الحكومة السنيّة غير مرّة بنقل الحجر الصحيّ والبضائع الموبوءة اليها

ومع قلّة الجزائر في سواحلنا قد توفّرت الصخور البحريّة وهي كانت سابقًا متّصلة بالساحل لا سيّما بالرؤوس البحريّة. وكثير منها لا تطفو فوق المياه وفي مصادمتها خطر متواصل للسفن التي تلامس نواحينا وخصوصًا اذا جرت قريبًا من الرؤوس المذكورة

وممّا سبق يلوح جهارًا بانّ السواحل الفينيقيّة لم تعدّها الطبيعة لتجارة البلاد ولكنّي قوم من البحّارين اذ لا تكاد تجد عندها مرفأ صالحًا كما انهُ ليس فيها نهر داخليّ يمكن خوضهُ. هذا فضلًا الى استقامة خطّها الساحلي الذي تكثر فيه الرؤوس والصخور دون خلجان او اخوار تأوي اليها المراكب ودون جزيرة تستلفت اليها انظار المجرين

ومع كل ذلك ترى التاريخ يشهد لعظم تجارة الفينيقيين واتّساع نفوذهم ووفرة مقايضاتهم. افليست مناقضة بين هذين الامرين. لا لعمري لانّ لفينيقية موقعًا خُصّت به دون غيرها وذلك لتوسّطها بين جهات الممالك الشاهانيّة ووقوعها في طرف آسية غربًا فتجمع بين الشرق والغرب. وان قيل انّ جبل لبنان حاجز شاهق يحول دونهما اجبنا انّ لهذا الجبل في شماليّهِ واديًا عميقًا وهو وادي نهر الكبير يمكن القوافل ان تسير في بطائحهِ فلم يَسهُ الفينيقيّون عن طرقهِ مع ما طُبعوا عليهِ من التفنّن في ترويج الصنائع التجاريّة. فانّ اهل فينيقية ادركوا ما خصّ الله بهِ من حسن الموقع مواطنهم فكدّوا

وجدُّوا لتحسين شرُونها والتعويض عمَّا ينقصها . ولذلك جروا في مسالكها الطبيعية وفتحوا لها مرافئ صناعيَّة كافية لسفن تلك الاعصار وهي زوارق مسطحة قليلة العمق كان يكفيها ما لا يكفي في زماننا للسفن المتوسطة الكبر

ومن فحص المدن الفينيقيَّة وتبحَّر في وضعها السابق استدلَّ على انَّ اصحابها كانوا من مهرة البحَّارين كما تعرف قوَّة اجنحة الطائر بعلوّ طيرانه وسرعة جريه . وما لا ريب فيه انَّ البحر كان موطن الفينيقيّ وكان لا يرى في البرّ الَّا مقاماً موقَّتاً يبني فيه كالطائر عشَّهُ لتأوي اليه حيناً فراخهُ ثمَّ يعود فيخوض لجاري البحر بارتياح كما تجد السمكة راحتها في غمر المياه

وهذا ما حمل الفينيقيين على ان يستخيروا لسكناهم الالسنة والرؤوس الداخلة في البحر وان قلَّ ماؤها الشروب او بعدت عن مصبّ الانهار اللهمَّ الَّا بعض مستعمراتهم كبيروت التي توفَّرت المياه في آبارها فاشتقَّت منها اسمها . واستوطنوا بعض جُزُر كصور وصيداء اللتين كانتا سابقاً في جزيرتين . امَّا الغالب على المدن الفينيقيَّة فكونها مبنيَّة على الرؤوس البحريَّة وذلك لسببين يهمَّان البحَّارة عادةً الاوَّل انَّ السُّفن تكون وراء هذه الرؤوس في مأمن من تراكم الرمال الذي يحفل قريباً من مصبّ الانهار والثاني انَّ المياه تكون ثمَّة ابعد غوراً من امكنة سواها . والدليل على حسن اختيارهم لهذه المواقع انَّ مقام المدن الساحليَّة لم يتغيَّر منذ نحو اربعة آلاف سنة ولم تنشئ الشعوب التي خلفت الفينيقيين مدناً غير ما سبقهم اليها الفينيقيُّون وان كانت المدن القديمة قد انحطَّ شأنها انحطاطاً كبيراً!

*

هذا وقد بقي علينا البحث عن امر آخر لهُ علاقة مع وصفنا السابق لسواحل لبنان . نزيد الكلام عن المرافئ التي تفتح للمدن الساحليَّة مسالك تجاريَّة مع باطن البلاد وتقرّب الوسائل لمواصلة الاطراف القاصية والجمع بين الاهلين

وان اعتبرنا اوَّل مدينة من فينيقية الشماليَّة اعني طرابلس الشام وجدناها خاليةً من المرفإ مع انَّ الطبيعة قد خصَّت طرابلس بما يجعلها من امَّهات المدن . فانَّ موقعها قريباً من وادي نهر الكبير ومركزها المتوسط بالنسبة الى جهات سوريَّة لا سيَّما قربها من وادي العاصي واتِّصالها بالبقاع وانحاء دمشق لما يمتدّ بينهما من السهول الجامعة بين

اقاصيها . فان بُني لها مرفأٌ واتصلت بها اسلاك السكك الحديديَّة اضحت احدى حواضر الشام بل جاز ان تكون مرفأ حلب وهي احرى بذلك من بيروت

والحائل الكبير دون ذلك ابتناء المرفإ في طرابلس لا تكون الامر مستحيلًا بل لما يقتضيه من النفقات الباهظة . ومما لا ينكر انَّ الصخور الطافية على وجه البحر من جهة الغرب يسهل استخدامها لصيانة هذا المرفإ من الرياح الغربيَّة التي يكثر هبوبها في سواحلنا . وكذلك يمكن ان يُسند الى هذه الصخور شمالًا حاجز يقوم في وجه الامواج الشماليَّة . لولا انَّ ابتناءه يقتضي كلفات عظيمة لبُعد قعر البحر من جهة الشمال وهو يبلغ ضعف عمق بيروت اعني ثلاثين مترًا ثمَّ انَّ شاطئ البحر على طول كيلومتر بنيف قليل الماء فيستلزم لاصطناع مرفإ اعمالًا ترابيَّة مهمَّة . وقد فكَّرت الحكومة السنيَّة غير مرَّة باصلاح مرفإ طرابلس . فانَّ صاحب الدولة فهمي حسن باشا وزير الخارجيَّة وضع للحكومة السنيَّة تقريرًا بيَّن فيه ضرورة ابتناء مرفإ لطرابلس وقدَّر النفقات لهذا المشروع بنحو ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنك . وعادت احدى الشركات الوطنيَّة الى النظر في هذا الامر سنة ١٨٨٩ وبحثت عنهُ وعن السكَّة الحديديَّة بين طرابلس وحمص لما بين المشروعين من العلاقة اللازمة فكانت نتيجة البحث انهُ يلزم لذلك ١٤ مليونًا من الفرنكات ولعلَّ ضعف هذا المبلغ لا يفي بالمرغوب

ولن نظرنا الى البترون وجدنا انَّ وضعها الجغرافيَّ لا يناسب فتح مرفإ فيها لوقوعها قريبًا من رأس الشقعة وفي سفح مشارف لبنان الشاهقة . وزد على ذلك انَّ شطَّها كثير الصخور . وان صحَّ قول المؤرخ مالالا انَّ الزلزلة التي حدثت على عهد يستنيان أجدت البترون مرفأً فذلك قول لا يمكن بيان صحَّته اذ لا نجد اليوم لهُ أثرًا بل تستحيل الدلالة على مكانه

وجُبَيل مرفأ صغير طولهُ مئتا متر في عرض مئة متر[1] . وليس من حاجة الى توسيع نطاقه لقلَّة الحركة التجاريَّة فيه ولعدم اتصاله بالاراضي الداخليَّة

امَّا جونيَة فقد مرَّ الكلام عنها سابقًا فلا نعود اليه . وكذلك نضرب الصفح عن بيروت ولها المرفأ المعروف الحديث النشأة الكافي لتجارتها الحاليَّة . فلم يبق لنا اتمام هذا الفصل سوى البحث عن مرفإ لصيداء

---

[1] راجع رسمهُ ص ٦٦١

يلوح انّ مدينة صيداء القديمة كانت جزيرة كما كانت صور وصيفتها وكان لها مرفأان احدهما في جنوبيها والآخر في شمالها. وكان الاول يُدعى بالمرفأ المصري وقد تراكمت فيه الرمال التي سفتها الرياح الجنوبيّة الغربيّة من جرف النيل فانسدّ بحيث لا

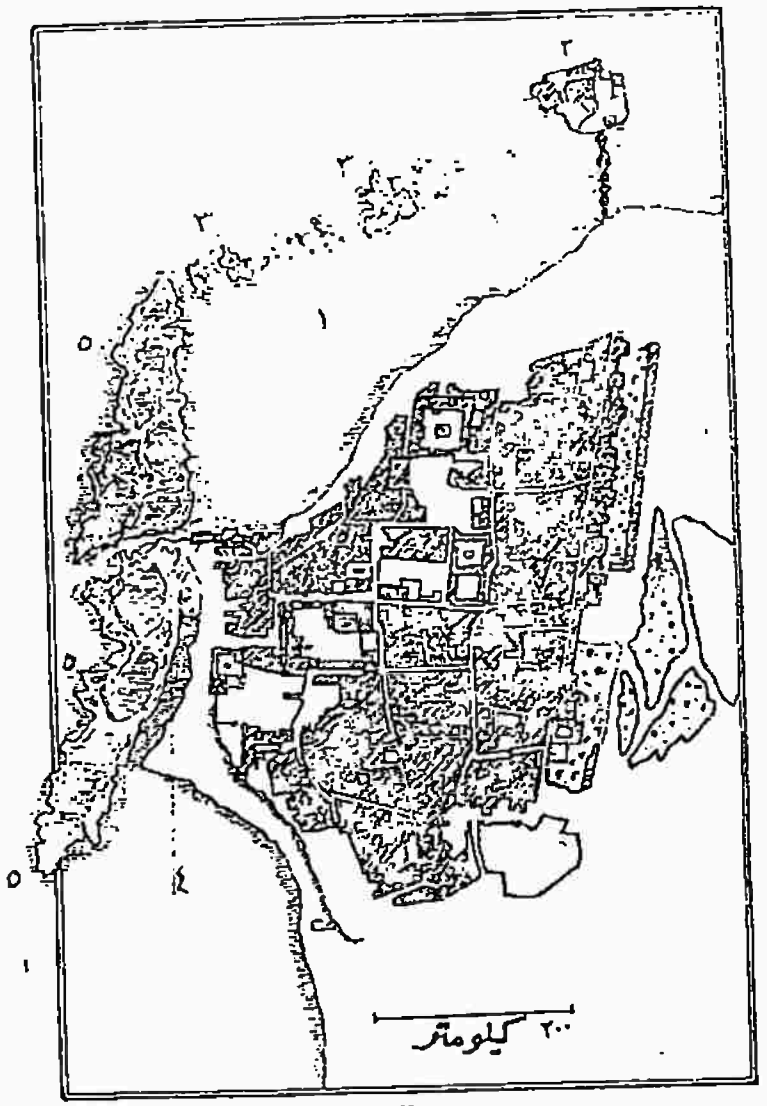

صورة مرفأ صيداء

١ المرفأ الشمالي ٢ قلعة البحر ٣ بقايا الرصيف القديم ٤ المرفأ الجنوبي ٥ جزر صخريّة

يمكن استعمالهُ . اما المرفأ الشمالي فاحسن وضعاً تصونهُ صيانة كافية الصخور التي تمتد حولهُ . الّا انهُ صغير داخلهُ ٦٠٠ متر وعرضهُ متنان ولا تدخلهُ الّا المراكب الشراعية . ولمّا عاد الى صيداء قسم من حياتها التجارية في القرن السادس عشر كانت السفن ترسو شماليّ هذا المرفأ في نوع من المينا مفتوح من الطرفين ووراء جزيرة صغيرة من الصخور التي فوقها كان بُني قصر قديم . وكانت السفن في مأمن من الريح الصرصر التي تهبّ من الجنوب الغربيّ الّا انها كانت معرّضة للرياح الشماليّة وليست هي دونها خطراً . والرسوّ في هذا المكان صعبٌ جدًّا لانّ قعر البحر هناك صخريّ لا تنشب فيه المراسي فضلًا عن انّ القلوس كانت تفنى بالاحتكاك . الّا انّ هذا المرفأ كانت تحميه قلعةٌ مبنيّة على صخر بحريّ بازاء البلدة وهي متصلة بالبرّ بجسر متعدد القناطر (١ . اما اليوم فليس هذا المرفأ بكافٍ للسفن البخارية لقلّة عمقهِ ولذلك ترسو بعيدًا من الشاطئ .

وبقي هذا المرفأ مع خللهِ الى غاية القرن الثامن عشر موردًا تتقاطر اليهِ السفن التجاريّة . وكانت تجارة دمشق تنصرف اليهِ . ثم بطل بفعل الزمان . وعندنا انّ هذا المرفأ قد سدّتهُ العوامل الطبيعيّة . وان قيل انّ لصيداء مرفأً داخليًّا يمكن اصلاحهُ اجبنا انّ الامر ليس بسهل مهما قالهُ المسيو لورته في كتابهِ عن سوريّة (ص ٩٨) . اما المرفأ الشمالي السابق وصفهُ والمصون بقلعة البحر والجسر ذي القناطر فان اراد احد اصلاحهُ لم يمكنهُ ذلك الّا بحجريّة في وسط البحر تبلغ ٦٠٠ متر ليكون ثخنهُ عند المياه ستّة امتار ثمّ يقتضي ابتناء سدّ يمتد الى القلعة ومع كل ذلك يكون هذا المرفأ عرضةً للريح الشماليّة . وعليهِ فاننا نرى مع الانكليزي لوفت كامرون (Lovett Cameron) انّ هذا المرفأ لا يكون موافقًا للتجارة ما لم تُنفق عليهِ النفقات الطائلة (٢ . اما البلاد الداخليّة المتّصلة بصيداء فقليلة الخصب . ولا أمل في جعل هذا المرفأ فرضة لدمشق اذ انّ بين صيداء ودمشق حواجز من الجبال كما بين دمشق وبيروت . وعندنا انّ هذه النفقات لو صُرفت على طرابلس لكان الربح اوسع والنفع اعمّ والله اعلم .

---

١) راجع كتاب المسيو ماسون (Masson) عن التجارة الفرنسية في البلاد الشرقية ص ٢٨٣

٢) راجع كتابهُ Future route des Indes, p 246